

مكتب الصحافة والاستعلامات بالسفارة الملكية الأفغانية بمصر

أثر الإسلام في الحياوم والفنون

محاضرة للسيد صلاح الدين الحجوي
سفير أفغانستان بمصر

أقامها بدعوة من إدارة العلاقات العامة في المؤتمر الإسلامي العام
مساء يوم الأربعاء ٢٣ شعبان ١٣٧٥ (٤ أبريل ١٩٥٦)

في قاعة المحاضرات بالغرفة التجارية المصرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

آنساتى ، سيداتى ، وسادتى . وفى الدين : بناتى ، أخواتى وإخوانى :

يقولون إن الإسلام جاء فى عصر مظلم كان على قفزة من العقيدة والفكر والعمل .
وفى الحقيقة إن الإسلام جاء فى حينه ، فى زمن كان دوامة للأفكار والعقائد المتضاربة
والمتضادة ، وإعصاراً للأعمال المختلفة الاتجاه .

ما هو الإله ؟ وما علاقته بالعالم ؟ وما هى النسبة والقرب والبعد بين الطبيعة وما بعد
الطبيعة . هذه كلها من الأمور التى تحدد أسس الفلسفة .

ما هو الدين ؟ هل الدين رابطة سرية خفية من العقيدة والتأمل بين الإنسان وبين
الله ؟ أم هو موسوعة ضخمة من المسؤوليات النظرية والعملية ، الفردية منها والاجتماعية
على ضوء المبادئ عند الله وعند الضمير وعند الشرائع وعند المجتمع ؟

ما هو الإنسان بكيانه وخلقه وذاته ؟ هل هو ثنائى التركيب مؤلف من الخير والشر ؟
أم هو خير بفطرته والشر طارىء عليه ، مما يعين المبادئ للعلوم القانونية ؟

ما هى المعرفة ؟ هل هى ذاتية صرفة أو موضوعية بحتة . وما هو الفكر ؟ هل نستدل
من الجزئى إلى الكلى ومن المعلول إلى العلة ، أم بالعكس مما يوجه السير
والكسب للعلوم ؟

وما هو الفن ؟ هل الفن تقليد للطبيعة ومحرك للفرائز ؟ أم هو مثالى يشير إلى الحقيقة
ويمبر عن المثال ، ونقد وفى نفس الوقت جبران للطبيعة والمحيط والحياة ؟

هذه كانت أسئلة مصدرها اليونان والرومان والإسكندرية وإنطاكية والقيروان وبلخ

وبنارس ، وموجهة إلى كل شخص يفكر في الحياة ، وكانت هذه المسائل تشغل باله وتوقعه في الحيرة والتشويش . لقد كانت تلك الأفكار المتخالفة المتضاربة ، بحدودها النهائية ، تدخل في الأذهان وتتعارض ، الواحدة مع الأخرى ، وتترك في الأذهان تناقضاً ، وتخلق من ذلك تردداً وحيرة وشكاً ولأدرية وفوضى في العقائد والمثل ، وتقضى على سلوك الأفراد والمجتمع .

* * *

ففي أزمنة ما قبل الإسلام كان الإله إما مظهراً من قوة طبيعية أو حيوية أو نموذجاً للجمال إنساني . وهذه المظاهر كانت ممثلة في أكل أو أجل فرد من نوع الإنسان أو الأنواع الحيوانية . وكان الإله بطبمه و بطابمه الطبيعي والحيواني مظهراً رائعاً للفرائز ومشاركاً مع الشعب في العواطف الغريزية ، وحتى في الرذائل الفردية والاجتماعية . وكان هذا الإله جزءاً من الشعب يشاركونه فجورهم وتقواهم . فكان بمثابة راية لهم في حروبهم ، وآبدة في نسكهم وأعيادهم . وهذا الإله عندهم كان أشد اعتصاماً بالعصبية القومية وأشد ميلاً للهجات والغارات على الأقوام الآخرين .

وحتى اليهود ، في دينهم الذي حرّفوه وغيّروا الكلم عن مواضعها ، يزعمون أن إلههم هو الذي يوحى إليهم القدر والتزوير والتمسك بكل ذريعة كي يفتكوا بكل الشعوب التي ليست من أصلهم (غويم) ، حتى تحمل إسرائيل محلامهم . فهم بزعمهم يتخيلون إلههم أشد تمسكاً منهم بتقاليدهم الفاشمة والمتجاوزة ، وأنه أكثر منهم عداً ولدداً للبشرية .

ومع أن سقراط وأفلاطون وأرسطو حاولوا جاهدين أن ينزّهاوا الإلهية ، وأن يرفعوها فوق مستوى الطبيعة والمادة والفرائز ، إلا أنهم فشلوا في إكمال التوحيد وفي تطهير حظيرة القدس من شوائب الشرك والمادة .

فإذا لم تكن هنالك وحدة في الأمر ووحدة في الإسناد ، فلا يمكن أن تكون

وحدة في المبادئ والنواميس . كما أنه إذا لم تكن هناك وحدة في الخلق فلا يمكن أن تكون وحدة أو اتساق بين أجزاء الكون . فالشرك يحدث الفوضى في علاقتنا بالنظام الطبيعي والأدبي ويفقد روح الاتساق في عالمي المادة والمعنى .

ثم جاء الإسلام برسالته بأن الله تعالى واحد أحد ، فرد صمد ، مبرأ من المادة والمقولات ، متعال عن النقائص والذائل ، وعن التغير والنهاية ، وله أسماء حسنى ، وكل واحد من هذه الأسماء المقدسة العاملة يتصرف نحو جهة من جهات الكون المادى والأدبى . مثلاً إن الله الواسع العليم يتصرف بوسعته نحو ناحية الطبيعة المترامية الأطراف والتي تسير طبيئاً للنظام الطبيعي ، كما يتصرف بعلمه نحو ناحية الشعور التي تجرى طبقاً للنظام الأدبى .

إن الميثافز يقيا (ما وراء الطبيعة) عند أمم ما قبل التاريخ كانت تحت سقف الطبيعة . وكان الإله فرداً من نوعه ولكنه فرد بكر أضخم جسماً وأشد بطشاً وفتكاً . وعندما جاء اليونان البارعون في العلم لا شك في أنهم رفعوا صرح الميثافز يقيا إلى درجة أعلى بكثير مما كانت عليه ، ولكنهم لم يقدرُوا أن يرفعوه عن جو تنفس فيه الأنواع وتطير فيه الغرائز .

وعندما أنشئت المدرسة المصرية الإسكندرية (الأفلاطونية الحديثة) زعم أفلوطين Platinus أن الميثافز يقيا (ما وراء الطبيعة) بعيدة غاية البعد عنا ، وأنه ليس في متناول أى مشعر من مشاعرنا الوصول إليها ، وأنها وراء خيالننا وقياسنا وظننا ووهمننا . مع أن الله تعالى قريب يجيب دعوة الداعى ، بل أنه أقرب من حبل الوريد . فهذا الفكر كان في ناحية من الإفراط ، بجانب الذين فرطوا ووضعوا (ما وراء الطبيعة) تحت سقف الطبيعة .

فالإسلام فرّق بين المشاعر الإنسانية ، واعتقد بأن الفكر إذا كان يتردد في مسالك المادة ويستقر في الدماغ فإنه بعيد كل البعد عن إدراك عالم الألوهية ، وأنه إذا كان العقل يستمد من الحدس Intuition ويستنير من الضمير ويقتبس من الوحي والإلهام

ويستوى على عرش القلب ، فإن الله تعالى يتجلى فيه (لايسعنى أرضى ولا سماءى ، ولكن يسعنى قلب المؤمن) .

فالله سبحانه وتعالى فى عالم الإطلاق لا تدركه الأبصار ولا أى مشعرٍ من المشاعر البشرية . ولكنه تعالى على عرش صفاته المقدسة وأسمائه الحسنى التى كل واحد منها مبدأ من مبادئ النظام الطبيعى والناموس الأدبى — يُدرك بالشعور الإنسانى ، كما أنه بمظاهر تجلياته فى الآفاق والنفوس يدرك أيضاً بالأبصار .

فتنزيه الملائ الأعلى لما فوق الطبيعة يوجد فىنا مركزاً سامياً لأفكارنا وتصوراتنا يرفعنا بها إلى سماء منزهة عن الماديات والمنافسات المادية والشعبية . وباقتراب ذلك العالم لتقاربنا وباتحاده مع شعورنا يخلقنا فىنا شوقاً وحباً للعالم الإلهى ، ويصبغان حبنا وعواطفنا بصبغة مثالية ، ويقرباننا حباً من مبادئنا السامية ، وبالتالى من النواميس الطبيعية والأدبية ، ويجمعاننا بالحب مع محيطنا الطبيعى والاجتماعى .

كما أن توحيد المبدأ الأول للكائنات الطبيعية والحياة والشعورية يجمع بين مبادئنا وأهدافنا ، ويربط بين أجسادنا وأرواحنا ، وبين غرائزنا ومثلنا ، ويخرجنا عن ثنوية الخير والشر وتثليث الطبيعة والحياة والشعور ، وهما (أى الثنوية والتثليث) اللذان يخلقان الفوضى فى الأفكار والمبادئ والسلوك .

* * *

أما الدين ، فكان عند الأمم السالفة نماذج من آثار الفن تقدم مع القرابين عند أثر فنى آخر منحوت أو منقوش على الجدار أو السقف . فالإله كان ديباجة لمجموعة طبائع هذه الأمم وحرزاً لغرائزها . وكانت العبادة قصيدة تتلوها المعازف ، ومديحة لغرائز أقوى وأشد حيوية من غرائزها . وحتى أن إله كل قبيلة كان أكثر عداً للقبائل المجاورة لها وأشد فتكاً بها . وكانت الميتافيزيقيا عندها هى الحد النهائى والمبائع لطبيعتهم الغرائزية . ولا شك

في أن الأديان السماوية بتواليها وتسلسلها أصلحت ناحية كبيرة من الدين ولطفت جو ما وراء الطبيعة إلى حد ما ، ولكن ليس إلى الحد الذي هو موجود الآن عندنا معاصر المسلمين . حتى اليهود بدينهم المحرف الذي يدينون الآن به توجد لديهم آيات محرفة بأن إلههم غضب عليهم عندما انحرفوا عن إرادته وعصوا أمره في قتل أهل القرية عن بكرة أبيهم .

وأما عندنا ، فالحقيقة بذاتها وحدة لها ثلاثة مظاهر هي الحق والخير والجمال . فكل ما لدينا من حركة فكرية يجب أن يقود إلى الحق . وكل ما بين أيدينا من عملية سلوك يجب أن يكون هدفها وغايتها الخير . كما أن كل ما يوجه أبصارنا وإحساساتنا وعواطفنا يجب أن يتوجه إلى جميل .

فالدين عندنا موسوعة تضم أبواب الإرادة والفكر والقول ، وفصول العمل والصنع والسلوك . وكل هذه ينبغي أن تتوجه إلى غاية هي الحق أو الخير أو الجمال ، سواء كانت تلك الإرادة والقول والعمل من الفرد أو من المجتمع .

فالدين عند الأمم السالفة كان سريرة بين الشخص وإلهه ، اللهم إلا في الأعياد أو الحروب . فان في تلك الاحتفالات كان الإله لأكثر من راية أو آبدة ، ممثلاً لإرادة الشعب . فالفرد كان مع إلهه في داخل المعبد في أوقات مخصوصة ، يثنى على بطشه وغرائزه الجبارة ، وفيما عدا هذين الميقتين (الزماني والمسكاني) لم تكن للفرد أية علاقة بالألوهية :

ومن جهة أخرى كان الفرد موظفاً على أن يتبع بعض المبادئ الخلقية كالشجاعة والسخاء والشكر على الإحسان والوفاء بالمهد . وهذا كان تسليفاً خلقياً فردياً ، بينما لم يكن المجتمع مكلفاً بأي مبدأ . ومع أن أفلاطون جاهد كثيراً كي يقترب من فراش السياسة المريضة ويدخلها في معسحة المبادئ الخلقية ، ولكن اليهود في العمود السابقة ، والاستعماريين في القرون الأخيرة ، أحبطوا هذه المحاولات الإنسانية من جانب العقل أو الإلهام

وأحلوا السياسة ، وبعبارة أخرى ، أحلوا « أخلاق المجتمع » دار البوار .

ولكن الإسلام قرر بأن كل ما ينبعث من مبدأ الحياة أو الشعور الإنساني ينبغي أن يتوجه على ضوء المبادئ المنتزعة من صفات الله تعالى إلى غاية ما من الخير أو الحق أو الجمال . وهذا لا يتقيد بأى زمان أو مكان ، سواء كان من الفرد أو من المجتمع . فالمجتمع عند الإسلام مكلف بالمبادئ التي يتكلف بها الفرد . وليست عند الإسلام للمجتمع سياسة خارجة عن المبادئ الخلقية للفرد .

فالمجتمع كالفرد ينبغي أن يؤمن بالمبادئ ، مبدأ الخير ومبدأ الحق ومبدأ الجمال ، وأن يؤمن بالله العزيز المتعال ، وألا يشرك به أحداً ، وألا يعبد غيره ، وألا يخضع لحول غير حول الله ، ولا لقوة غير قوته تعالى ، وإلا لجلال الشرع والنواميس المقتبسة من الحق والخير والعدل التي هي من صفات الله (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله) .

فالفرد أو المجتمع الذي يخاف غير الله ، أو يطمع في غير الله ، ليس مسلماً كامل الإيمان ، كما أن الفرد أو المجتمع إذا شذ عن مبادئ الحق والخير والجمال والعدل وتجاوزها إلى غيرها من أضدادها لا يكون قد دخل في السلم كافة . وليس بأحسن من ذلك فرد أو مجتمع يتحمل ذل العبودية ووزر الظلم بسبب أنه لا يعتقد بموجوديته ومواهبه ولا يعتمد على نفسه وبالنتيجة ، لا يؤمن بحول الله تعالى وقوته .

ولذا فالمسلم ، سواء في ذلك الفرد أو المجتمع ، الذي هو من خير أمة ، هو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويجادل الظالم كي يمنعه من ظلمه ، ويعارض مع المظلوم ويؤنجه على خضوعه وخنوعه لحول أو لقوة ليسا من الله تعالى .

فتوحيد الله معناه توحيد المبادئ وتوحيد النواميس وتوحيد الكون ، والوفاق بين الجسد والروح ، وإنشاء حب بين المحيطين الطبيعي والاجتماعي ، وإيجاد مركز مثالي

لعواطفنا وغرائزنا وميولنا ، بغية تنظيم شخصيتنا وبناء كعبة خالدة تتوجه نحوها نهجذاباتنا ونزعاتنا من الخوف والطمع الهائمين في سباسب الحرص ووفياى الأمل الكاذب .

فالفرد أو المجتمع فى الإسلام لا يخضع لفرد أو لمجتمع مثله ، عن خوف أو عن طمع ، لأن للعبد المحروم من الحرية سلاسل خارجية وأغلالا داخلية . أما الأغلال الداخلية فهى الخوف والطمع الذاتى العندى . وهى تصير العبد عبداً بكل معنى الكلمة . وهذا هو القيد الحقيقى والرق المعنوى . لقد كان لقمان حراً لأنه لم يكن مصفداً بالأغلال الداخلية ، ولو أنه كان محسوباً من العبيد بسبب سلاسله الخارجية .

* * *

كان الثنويون من الجوس وعبدة النار وبعض فلاسفة اليونان يعتقدون أن الإنسان بطبعه مزدوج من الخير والشر ، وأن الكون مركب من عنصرين متضاربين ، من النور الذى يشير إلى الخير ومن الظلام الذى يقود إلى الشر . وكانت الحياة عندهم صراعاً بين الخير والشر ، كما أنه كان على الإنسان عندهم أن يتخذ جانب الخير ويجادل الشر .

ومع أن كفة الخير كانت راجحة عندهم، إلا أنه كانت لديهم عنصرية قوية بل وقدسية للشر . وكان من أنواع الإجلال للشر الاعتراف بموقعه الإلهى والخضوع له وتقديم القرابين له . ولقد كان هذا سبباً لحيرة الفكر وفوضى العقائد والاعتراف بكيان الشر .

ولكن الإسلام يعتقد بعدم جوهرية الشر . فالخير والحق والجمال هى مُثُلُ ثلاثة تمثل حقيقة قدسية موحدة . والشر والباطل والقبح عبارة عن وضع الشئ فى غير موضعه . فالشر بالذات لا وجود له فى قاموس الإسلام . وأكبر شر عند الإسلام هو الشيطان ، ولكن ليس له حول ولا قوة إذا لم تتحد معه النفس الانسانية . ولقد كان الشيطان يوماً معلماً فى الملأ الأعلى ، ولكنه عندما ترك المبادئ وشذَّ عن النواميس الخلقية صار شراً

لأنه ترك موقعه الحقيقي . كالنار تصبح شراً إذا تركت موقعها وسرت في أثاث البيت ،
وتكون خيراً إذا هي بقيت في مكانها من الموقد .

فإنه سبحانه وتعالى هو مصدر كل حي ومنشأ كل شيء . منه نشأت الطبيعة ونبتت
الحياة وانبثق الشعور . وليس شيء في العالم المادى أو المعنوى إلا وهو منبث من الله الذى
هو أصل الخير وعين الحق وينبوع الجمال . ولهذا فإن لنا أن نعامل كل شيء بفكرة الحق
وعمل الخير ونظرة الجمال . كما أنه ليس هناك شر نعبده أو نحترمه ونخضع له . وإذا كان
هناك شيء يظهر شراً ، فليس لنا أن نقلعه أو نقوّض بنيانه ، بل إن علينا أن نصلحه
ونخرجه عن الظروف التى صيرته شراً . ولذا فالشر عندنا لا يدفع بالشر وإنما بالخير . قال
تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة
كأنه ولى حميم) .

لقد كان الخير والحق والجمال عند سقراط هى الأقانيم الثلاثة التى تمثل الحقيقة القدسية
الموحدة . وعندما جاء أفلاطون اعتنق هذه المبادئ واعتقد أن مثال الخير هو أقوم المثل .
وسارارسطو والعلماء الملاحمون على نهج هذه السنّة السنية . كما أن عيسى عليه السلام أمضى
على هذه الوثيقة الإلهية . وعندما جاء خاتم الرسل محمد بن عبد الله صلوات الله عليه تقبل
هذه السنّة بقبول حسن وأنبثها نباتاً حسناً وجعل منها لأتباعه شرعة ومنهاجاً ، وختم على
هذه الوثيقة العقلية والإلهامية بخاتمه الخاتم ، وبذلك أتم مكارم الأخلاق .

ولكن مع الأسف جاء جرمى بنتام ، وستيوارت ميل ، وجيمس ميل ، وشذوا عن
هذه السنّة وحذوا حذو المدارس الشاذة لليونان ، وهى التى كانت اللذة عندهم المبدأ السامى
للأخلاق والقوانين . ولكن بنتام وستيوارت استبدلا باللذة شيئاً أخسّ منها وأرذل ،
وجعلوا النفع مبدأ بدلاً من اللذة . وكان الاستعمار حينذاك قد أرسى سفنه فى جهات

المعمورة . ورأى أن هذا المبدأ النفى يؤيد مطامعه الاستعمارية ، ولهذا أيده وهلاله ، فأحلّ المنفعة محل الخير ، وهى التى نشأ منها الاستعمار والاستثمار .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نبغ سببى الذى استعرض مبادئ النشوء والارتقاء الحيوانى فى حظيرة القدس للأخلاق ، واتخذ من التنازع للبقاء والانتخاب الطبيعى وبقاء الأنسب مبادئ للفلسفة الخلقية . ومن هذه الفسك نبع مبدأ التفوق القومى . وهنا حدثت القوة محل الحق ، كما أقامت المدرسة النفعية ، المنفعة مقام الخير ، ووقع ما وقع فى العالم من تشنجات واختلافات وحروب باردة وحامية أغرقت العالم فى بحر من التشويش فى عهد كونا نرجو فيه أن تصل سفينة الحياة إلى شاطئ آمن سعيد .

ومن جهة أخرى إن لمبادئ القوة والمنفعة طبيعة أنانية تؤيد الفردية التى كانت منذ خمس وعشرين قرناً تتعارض والاشتراكية . فكان أفلاطون يؤيد الاشتراكية ، بينما تلميذه ارسطو كان ينظر إلى جهة الفردية للفرد أكثر من الاشتراكية فى الفرد . ولما جاء سيدنا عيسى عليه السلام حدث الكنيسة حذو ارسطو وأيدت الفردية . وعندما طغت الفردية ، قام أتباع مزدك فى بلاد فارس بطغيان آخر يعارض الفردية الطاغية .

عندما جاء الإسلام ، وضع المسلم حداً وسطاً بين الفردية والاشتراكية (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) . هذا هو المقام الحقيقى للشخص الإنسانى . فالإنسان يفكر فرداً ويعمل مجتمعاً . إن له حقه ونصيبه ، ولكنه مع هذا هو جزء من المجتمع . هو للمجتمع والمجتمع له . لا تتصادم فرديته مع مجتمعه ، كما لا يتصادم مجتمعه مع فرديته . يكتمل شخصه كى يكتمل المجتمع ، وبالتالي إذا كمل المجتمع ارتقى الفرد وسعد .

ولما شاعت المدارس النفعية والتنازعية ، وقويت فكرة الفردية ، وعم الاستعمار والاستثمار ، واشتدت النزعة القومية ، وأصيب العالم بنوبة التوتر ، أفضت هذه المبادئ المعتلة المفرطة إلى عكس العمل المعتلّ المقابل لهذه المبادئ ، أعنى الاشتراكية المحضة المفرطة .

ولا شك في أن هذه الاشتراكية المفرطة ستعود بعكس عملها إلى فردية مطلقة معتلة أخرى كالوجودية ، لأن الأفكار عندما تتجاوز معيارها الوسط تقع في أرجوحة نوسانية بين طرفي الإفراط والتفريط ، بحركة لا انقطاع لها .

إن السعادة الحقيقية لبني البشر تكون عندما تتحدد مبادئ الخير والحق والجمال في الحقيقة ، وتتمثل الحقيقة في هذه المبادئ ، فتكامل إحداها الأخرى ، لا في المنفعة والقوة اللتين هما سبب التفرقة والنزاع وبت الغرائز وبعث الفتن . وتكون السعادة إذا كان الشخص وسطاً بين الفردية والاشتراكية ، بمعنى أن تعيش الفردية والاشتراكية جنباً إلى جنب في نفس الشخص بسلام ووثام دون أن تتعارض الواحدة مع الأخرى .

* * *

إن المعرفة في الإسلام مجموعة من الموضوعية والذاتية . فمثلا يظل الصائم ممسكاً إذا كانت الشمس محبوبة عنه حينما هو تحت الشجر ، ويفطر الذي يراها من فوق الشجر . ومن جهة أخرى إن حقائق الأشياء ثابتة عند الإسلام . فأصحاب الكهف كانوا فتيمة آمنوا برهبهم وزادهم هدى . ومع أن معرفة بعضهم بالزمن كانت موضوعية ، ومعرفة البعض الآخر كانت ذاتية ، وإذا لم يكن الشخص فرداً بحتاً أو مجتمعةً صرفاً ، فلا شك في أن معرفته ينبغي أن تكون بين الموضوعية والذاتية . إن المسلم لا ينكر حقيقة الأشياء ، كما أنه لا ينكر قوام ذهنه وأجزائه المختلطة بالمعلومات .

وطريقة الاستدلال عند المسلمين في المنطق وفي العلوم هي طريقة الاستقراء ، أي تحرى الكلّي من الجزئي ، والعلّة من الماعول . أما في الفلسفة (فلسفة الخلق والجمال) فالاسلام يتبع على الأكثر طريقة التعليل من المسبّب إلى المسبّب . ولهذا فالاسلام في عالم هذه الفلسفة مثالي محض ، كما يلي :

لقد كان أفراد الأمم الخالية يمتزعون فكرة العالم الالهي من مراسمهم وقياداتهم

ومخافهم . كانوا ينعثون آلهتهم على أشكالهم ، ويطبعونها بملاحمهم ، ويظهرون في تقاطيعها غرائزهم وانفعالاتهم وعواطفهم . كانوا يتخلقون شبيهاً من أنفسهم الطبيعية لا يتميز عنهم إلا في شدة الانفعالات ومبالغ الغرائز ، ويتخذونه إلهاً لهم . بينما الله سبحانه وتعالى عند المسلم هو واجب الوجود ، أزلي أبدي ، مجرد عن المادة ومبرأ عن المقولات .

فإذا ما آمن المسلم بذات الله تعالى وبصفاته الحسنى فإنه يحاول جاهداً أن يرى نفسه بنوره تعالى وأن يتخلق بأخلاقه . فحينما يرى الله علياً يجاهد في أسفار العلوم ، وحينما يراه حكماً يسعى إلى التوفيق بين علمه وعمله ، وحينما يراه سميعاً بصيراً يحاول أن يوقظ مشاعره وينجاهها للمبحث عن حقائق الأشياء ، وحينما يراه عزيزاً يسعى إلى العزة والكرامة ، وحينما يراه خالقاً يرتكز قواه في الصنع والعمل والانتاج . وحينما يراه رازقاً يميل إلى السخاء والكرم وعمل الصدقات . وحينما يرى الله غنياً حميداً يأبى على نفسه أن يكون مادياً حقيراً مذموراً ومدحوراً .

وحينما ينظر المسلم إلى فعل الله تعالى يرى أن فعله مستمر لأجل الفعل نفسه وليس لغرض من أغراضنا السياسية أو النفعية ، ولا لإرضاء لأحد ، أو برغم شخص آخر . مثلاً إن الله تعالى يتخلق لأنه خالق ، ويرزق لأنه رازق ، ويغفر الذنوب لأنه غفار ، ويتوب على من يشاء من عباده لأنه تواب . فليس هنالك من وراء الخلق والرزق والغفران والتوايب أي لغرض . ولذا فإن العبد المسلم المؤمن هو الذي يؤدي وظيفته لأجل الوظيفة نفسها ويستمر في أداء واجبه الديني والوطني والانساني لأنه واجب ديني ووطني وإنساني . لا لغرض آخر (نعم العبد صهيبي لو لم يخف الله لم يعصه) . ورحم الله القديسة رابعة العدوية التي كانت تعبد الله تعالى لا خوفاً من عذابه ولا طمعاً في جنته ، ولكنها تعبده لمجرد العبادة وأداء الواجب .

إن المسلم يحاول جاهداً أن يتبع سنة الله تعالى في أعماله ، وأن يتخلق بأخلاقه تعالى

في سلوكه . فسنة الله جل وعلا تفتح أمامنا النظام الطبيعي الذي ينبغي أن نراعيه ، كما أن أخلاقه عز شأنه تقودنا إلى القانون الأدبي الذي ينبغي أن نؤمن به . فدائرة الكون منقسمة إلى قوسين ، قوس نزول من الله إلينا ، وهو القانون الطبيعي ، وقوس صعود من الله إلى الله ، وهو القانون الأدبي . وهذا هو مقامنا المحمود ، مقام (قالب قوسين) .

فإنه تعالى هو مثلنا الأعلى في العلوم القانونية Normative Sciences وفي الفنون المستظرفة . فهدفنا من السلوك مثلاً أن نتخذ من صفات الله أسوة حسنة لأعمالنا كي نقرب من كمالنا المثالي وزلفى عنسده . كما أن الجمال عندنا مثالي محاييد من الغرائز ، ومظهر رائع من جمال الحقيقة . وجمال الفن عندنا عبارة عن خلق وإنتاج عالم يكون أقرب إلى المثال بالنسبة لنا .

* * *

وما هو الفن عند الإسلام ؟ إن أول محاولة من البشر للتقرب من عالم الألوهية جاءت عن طريق الفن ، في وقت لم تكن فيه لشخصية إلههم براعة تغاير بالذات من طبيعة أفراد النوع ، ولم تكن لهذه البراعة صبغة من التجرد والخلود والوجوب والالاهية ، بل كانت البراعة في القوة والشدة والصلابة والعضلات المفتولة والغرائز الحية . ولذا كان فن النحت — نحت النماثيل — الركن اليماني في كعبة الفن . فالمجسمات المنحوتة كانت هي الانتاج الفني الذي كان في إمكانه أن يعبر عن السكال والجمال الطبيعي والغرائزي بأبعاده الثلاثة . مثال ذلك تمثال الزهرة Venus الفتاة القبرصية الحسناء — كما سماها هوميروس . فقد كانت أجمل تمثال لفتاة في أحسن تقويم جسدي يمكن أن يوجد في النوع . وكذلك كان فن الشعر والبيان في آخر قائمة الفن ، لأن كمال الجسم لا يظهر في أي شيء أحسن من ظهوره في مرآة طبيعية جسمانية ، لا سيما إذا كانت رخامية .

ولما اتسعت آفاق الشعور البشري ، وارتقى جوّ ما بعد الطبيعة ، دخلت في قاموس

الفلسفة كلمات أمثال: الوجود، والقدم، والسرمدية، والتجرد، والاطلاق، واللامتناهى .
وبدا الملائم الأمل يتسامى في سرادق التجرد والتنزه عن شوائب الهيولى والطبيعة . وفي حظيرة
فوق المساهية Identity والهوية Entity ، وفوق الحدود والرسوم والمقولات . عند
ذاك بدأت التماثيل المنحوتة تظهر عجزها عن تمثيل صفات وتأملات بعيدة كل البعد عن
المادة وعوارضها .

هممت بالبدر في عاياه أثلته ظننته منذ بدا في الأفق إياك
أفئيتسه حجراً والنور مكتسب فليس يبلغ في عاياه عليك

فهل يمكن لتمثال الزهرة الذي نعتته فيدياس أن يتحدث عن الجمال المثالي الذي هو
ثالث الأفانيم للحقيقة، والذي يتحد مع الخير ومع الحق، والذي قال عنه أفلاطون إنه توأم لجمال
المعالم والأفكار وجمال الأعمال الصالحة ؟ كما أنه من المستحيل لتمثال، ولو كان منحوتاً من
فولاذ، أن يعبر عن قوة تخلق عوالم المادة والأدب، وعن قوة تسنّ قوانين الطبيعة والحياة
ونواميس الأدب والأخلاق، وعن قوة هي مجردة ومطلقة، وواجبة أزلية أبدية لامتناهية .

لقد رأيت تمثالاً لأفلاطون . ولا أنكر أنى رأيت فيه بعض الملامح الفيزيولوجية من
من الذكاء والتأمل . ولكنى لم ألمح عليه أثراً من مُشله المجردة، ولا رمزاً من أفسكاره
الساوية، ولا إشارة إلى آثاره الخالدة، وإذا لم يكن للتماثيل أن تمثل فرداً من أفراد
نوعنا، فكيف يمكن لها أن تعبّر عن موجود متمكن في سرادق القدس ومتقنع بقناع
التجرد والاطلاق والتنزه والوجود والسرمدية .

واسكنى في الحقيقة رأيت أفلاطون .. رأيت به بميزات التي كوّننت شخصيته العظيمة.
رأيت أكثر مما رآه كثيرون من أبناء حية المعاصرين له . فقد رأيت في (جمهورية)، وفي
كتبه أمثال جورجياس، وبروتوجراس، وفيدون، وغيرها .

وهذا دليل حق على أن الاسلام قلب قائمة الفن رأساً على عقب، ووضع فن الشعر

والبيان والأدب في مقدمة القائمة ، لأن بحر التفكير الزاخر ، ومحيط التأمل الفائض ، وبسيط القلب الذى لم يخلق الله عالماً أوسع منه ، لا يمكن أن تصاد حيتانها الماردة الشاردة العارية من أى ملامس حسية وملابس عادية ، إلا بشخص « القلم » وشبكة « مايسطرون » فالله تعالى الذى هو فوق الهوى والصورة ، وفوق الجنس والفصل ، وفوق الحد والرسم وفوق القياس والفكر ، لا يمكن أن يتجلى فى شعبة من شعاب الفن أحسن منه فى « القلم وما يسطرون » .

« هو الله الذى لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحانه الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » .

فالرائد والقائد لشعبات الفن عند الاسلام هما فن البيان وصناعة الشعر . ولا غرو فإن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة . ولا شك فى أن الشعر قبل الاسلام كان أجمل ما يكون وصفاً للطبيعة وتغزلاً بجمالها ، بل لقد كان أروع تمثيلاً للطبيعة من تمثال (الزهرة) ، ولكن هذه الروعة الشعرية كانت فى عكاظ ، حيث كانت الهوى هى الجنس المتداول ، وكانت الصورة هى النقد الرائج ، وفى محفل كان سطح ما بعد الطبيعة دون سقف مظلة يجلس فيها الأعشى .

ألا هــبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا
مشعشة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا

إن هذا الشعر الرائع يشعر بالولع بالخمر وملازمة القدح ، ويبالغ فى وصف صفاء المدام ورقتها ، ولكن فى غمرة من الغرائز ومهرجان من العواطف .

ثم لنستمع إلى الشاعر الاسلامى الصوفى الكبير عمر بن الفارض وهو يترنم فى شعره قائلا:

رق الزجاج ورقت الخمر وتشابهها قشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

نرى أنه لم يقتصر في هذا الرباعي على وصف الخمرة الصافية وإعجابه بها ، بل وصف
السكّاس بأروع من وصفه لها ، وكذلك جمع في جرعة واحدة من الشعر المادة والمعنى ،
حتى جمع العالم الطبيعي وعالم ما بعد الطبيعة ، كما جمع القانون الطبيعي والناموس الأدبي ،
والجسم والروح وكل ذلك في أسلوب موجز ، سهل ممتنع ، تعجز عنه كتب الفلاسفة ودروس
الفلاسفة ، وبطريقة لا تحط بـ « ما وراء الطبيعة » ولا تنزل بها إلى سطح الطبيعة ، بل
بالعكس ترتفع بها عن سطح الطبيعة وتجعله مظهراً رائعاً لما « وراء الطبيعة » كما
يعتقد سبينوزا .

وفي هذا الرباعي غموض أوضح تفسيراً من كل تعبير ، بأن للعالم الطبيعي مظاهر
وتجليات من الحقيقة والجمال الحقيقي .

وإذا كنت أحاول شرح هذين البيتين بطريقة أدبية أو فلسفية ، فمن الطبيعي أنني
بذلك أشوّه وجه الشعر وهندام البيان ، لأن في غموض الشعر إشارات أشد بلاغة من كل
إفصاح وكل شرح أو تفسير . وفي هذا يقول ابن علي :

يا قوم إننا من حى ليلى قوموا نفارق تما وطيتا

إن (حى - ليلى) عند الشاعر الصوفي هو العالم المجرد الروحي والمثالي ، وليس فيه سمير
الغرائز الداعية إلى الصراع والنزاع ، ولا ثورات العواطف الطبيعية المؤدية إلى العنف
والشدة . و (حى بنى تيم) هو عالم الهيولى ، و (بنى طى) هو عالم الطبيعة ، وهما العالمان
الذنان يدعوان إلى الحظوظ الغليظة ، وإلى التنافر والضعينة .

وإن الشاعر في هذا البيت من الشعر يشوّق زملاءه كي يعيشوا في مستوى أخلاق
يسمو عن المنازعات المادية والمنافسات الجاهلية والذات الحسية والغليظة والتعصبات الدنيئة

السافلة، ويحاول أن يهيب لهم نفساً مطمئنة في ذاتها، راضية مرضية من الخالق والخلق .

* * *

بعد الشعر والبيان في القائمة يأتي التغنى . وفي التغنى كما ذكر « جوته » إشارة غامضة إلى الحقيقة . وإن إلهام التغنى لأشد غموضاً ، وبالتالي أكثر عمقاً، من الغموض الشعري . ولهذا فالتغنى يجتذب السامع أكثر من الشعر .

ولكن الموسيقى تحرك النفس في أى رتبة كان موقفها من هذه المواقف . فهناك النفس الغرائزية ، والنفس المنظمة المطمئنة ، والنفس الاجتماعية ، والنفس العالية التي يقول البعض بأنها النفس الميتافيزيقية . ولذا فإن الفقهاء ينظرون إلى الموسيقى بالنسبة إلى المستمع إليها وإلى درجة نفسه في النفوس .

أما الصوفيون فينظرون إلى التغنى كفن مثالي يقود إلى المثال ويشير إلى الحقيقة وفي هذا يقول ابن علي الصوفي :

يا لائمي في حب الغواني لمذرتي لو أبصرت ميماً
من ذكر ميّ عذب لسانى فليذكرنها من كان عيماً

إنه يشير إلى أن الذى له معرفة بالحقيقة ، يكون له إلمام بالتغنى ، كما يشير إلى أن التغنى يجلو السريرة ويروح عن المرء أعباءه المادية . وفي هذا يقول « جوته » : هلموا إلى الفن .. فهناك تجدون ملجأً آمناً . ولكن إذا كان الفن مثالياً ، فلا شك في أنه يكون أكثر جمالا وآمن ملجأً من العلم والفلسفة، لأن العلم والفلسفة يكشفان عن الفكر والدماع، بينما الفن المثالي يكشف الذهن ويشرح القلب السليم .

* * *

بعد ذلك يأتي فن التعمير، وكما أن الفكر الإسلامى في الشرق الأوسط وفي آسيا الوسطى جمع بين فكرة الشرق والغرب ، فكذلك فن التعمير الإسلامى جمع بين التدوير الشرقى والتزوى الغربى .

كانت العبارة عند انشراق عبارة عن أشكال طبيعية مستديرة يدور حولها البصر دون أى تعب أو تحريك وكانت هذه الأشكال تلهم العلماء نذينة وتمركز الحواس ، ومن ناحية أخرى كانت تتفق مع فكرتى الزمان والمكان عند الشرقيين الذين كانوا يعتقدون بأن الزمان مستدير أيضاً كالمكان ، وهذه الفكرة كانت السبب فى عقيدة التناسخ .

وفى الغرب كان شكل التعمير متزويًا ، أى ذا زوايا ، وكانت الأشكال معقدة وخليطاً من المثلثات والمربعات والزوايا الحادة والمنفرجة . وبالطبع كانت هذه الأشكال تحرك النفس وتبعث فيها رغبة التحرى والتفحص والمجاهدة على أساس أكثر مادية . فهذه الموسيقى الجامدة (ونعنى بها فن التعمير) ، بعكس الموسيقى ، لا تشير إلى الحقيقة ، وإن كانت فى بعض الظروف عند الشرقيين أشارت إلى بعض الحقائق ، كالأهرام مثلاً التى تشير إلى الخلود .

ولكن الإسلام جمع بين الاستدارة والتزوى ، لأنه أراد أن يصبغ التأمل الذاتى العنقدى بصبغة من الموضوعية ، كما أنه بدّل التماثيل بالرسوم . لأن الرسم كما يشير إليه « هيجل » أقرب للمثال بالنسبة للمثال المنحوت . لأن للمثال ثلاثة أبعاد ، بينما للرسم بعدان فقط . وكذلك بدّل الإسلام الرسم من محاكاة الطبيعة إلى خدمة الأدب والتعبير عن المعانى ، فأوجد أنواعاً جديدة من الخطوط ورسم كتابات رائعات تحلى متن البيان وتكحل عين الشعر ، وتتحد مع تقاطيع التعمير ، وتعبر عن المثال بطريقة أقوم وأقصر .

وعندما آمن الرسم بالإسلام ، ترون أنه هجر التماثيل المنحوتة ووقف بجانب البيان والموسيقى وفن التعمير ، وأصبح موسيقى ساكنة غير جامدة . وكذلك آمنت الموسيقى بالقرآن المجيد ، وعندما نستمع إلى تلاوة آى الذكر الحكيم من المقرئ الكبير نور الدين محمد رفعت طيب الله ثراه ، نشعر بأن رنات صوته السماوى تخاطب الحقيقة ، وأن متلواته

الخالدة تصعد مستقيمة إلى مثالنا الأعلى وترفعنا صعداً إلى معراجنا الأقصى ومقامنا المحمود .
يقول ارسطو متبعاً بذلك سلفيه أفلاطون وسقراط : إن الفن هو تقليد للطبيعة .
ويذهب أفلاطون إلى أبعد من ذلك ، فيقرر أن الموجودات الطبيعية نسخة وتقليد عن المثل ،
كما أن الفن نسخة وتقليد عن الموجودات الطبيعية . فالفن حسب عقيدة أفلاطون يكون
أبعد وأحط من المثل بمرتين . وإذا كان الفن عبارة عن تقليد الطبيعة ، فينبغي أن يكون
الرسم الفوتوغرافي أروع إنتاجاً للفن ، مع أنه ليس فناً ، بل هو عمل ميكانيكي وتفاعل
كيمياوي . وإذا كانت الفن تقليداً ، فلماذا نرسم الطبيعة على لوحة جامدة ، مع أن الطبيعة
أمام نواظرنا ، بحياتها ، وجمالها ، وتجليها .

فالفن عندنا ليس تقليداً للطبيعة بل هو نقد للطبيعة وجبيرة للحياة .

إننا قبل أن ندخل في حياتنا المدنية ، كانت غرائزنا في ذلك الحين في نشاط قوى
وصراع عنيف لجلب الغذاء واجتذاب الجنس الآخر ، وللدفاع عن النفس والعائلة . ولكن
بعد انتشار أسباب المدنية لم يبق لدينا عشر معشار هذا النشاط وذلك الصراع الدائمين .
ففي حياتنا المدنية نجد الغذاء والجنس الآخر تحت سقفنا العائلي ، كما أن رجال الأمن والجيش
يدافعون عنا ونحن نأثون مستريحون أثناء الليل وأطراف النهار . فهل نامت الغرائز وخذت
جدوتها وانقطع نشاطها ؟ كلا . إن الغريزة لاتنام ولا تخذم ولا ينقطع نشاطها ، ولكن
عندما أصبحنا في غنى عن مجموعة كبيرة من نشاطنا الغرائزي ، توجهت هذه المجموعة
المهملة إلى ناحية العلوم والفنون وتسامت إليها . فهذه العلوم والفنون هي عملية متسامية بجمرة
لنشاط هذه الغرائز المهملة والمدخرة عندنا .

مثال ذلك ، أن بقايا غريزة الفحص عن الغذاء قد تسامت إلى العلوم الاستقرائية .
وبقايا غريزة الخصام والدفاع عن النفس تسامت إلى الفنون العسكرية وأنواع المباريات .
وما بقي من قوة شاعرة للغريزة الجنسية تحوّل إلى الفنون الجميلة .

فإذا كانت الفنون في حد ذاتها نشاطاً ، وصورة متسامية ومزكاة عن الغريزة الجنسية ، فإن لنا أن نستخدمها في سبيل التسامى والتزكى ، لا أن نرجع بها إلى الوراء ، إلى العهد الوحشى البهيمى ، فنعيد استعمالها تارة أخرى لبث الغرائز الجاحمة .

فالفنان الحقيقي هو الذى له علاقة بمثله العليا . فمثلا إن الرسام المثالى ينظر إلى الطبيعة وإلى نفسه على ضوء المثال . ولذا فهو ينقد الطبيعة ، لأن المثال فى نظره أسمى وأعلى وأجمل من كل شىء . إنه ليس بقانع بهكذا المحيط ويحاول أن يخلق له محيطاً أكثر موافقة لحيالاته وأشد مطابقة لمثاله . فالفنان ينظر دائماً إلى عالمه بالمقارنة مع مثاله . وطبيعى أن العالم الذى ليس من صنعه وإرادته لا يتفق وآماله المتمركزة على المثال والمتوجهة إليه . فهو يحاول أن يخاق له عالماً يلائمه كى يعيش فيه بالطلائئة . فالفنان يعيش فى عالم فنه الذى هو مصنوع من صميم أنامله العاطفية ومن خيالاته وقرينته وتصوراته والذى هو عالمه الحقيقى ، كما يقول الشاعر الفارسى :

« فى تلك الديار البلاقع ، سئمت من المدارس والصوامع . وأحنّ شوقاً إلى محيط فى خارج هذا العالم ، كى أطرح تراباً على رأسى من فراغ بالى وطيبة قلبى » .

فالفنان عندما يسأم من عالمه ، يخاق له عالماً يأوى إليه ، ويكون عشاً لحاضره ، وصرحاً لمستقبلنا نحن . وفى هذا يقول « بيدل » الشاعر العجمى الكبير :

« اليوم كانت أبواب الفردوس مفتوحة لنا على مصاريعها . ولكن بسبب الملل والتسويق قلنا غداً . » فهو يتألم ويأسف لأنه سوف وقصر فى عمله الإنتاجى وبناء عالمه الحقيقى الذى يلائمه .

فمثلا إن المصور الذى يصور النيل ، إذا كان يريد اتباع الطبيعة فالأحسن له أن يأخذ له صورة فوتوغرافية ملونة . ولكن الرسام يحاول أن ينقد الطبيعة والمحيط الذى لا يلائمه . وفى نفس الوقت يحاول أن يجبره ويصلحه على نموذج مثاله الخصوص كى يتلاءم وحياته .

ولذا فهو يرسم النيل بألوان تلائمه ، وباتساع يوافق تخيلاته . وقد تكون في الرسام نزعة من الساديزم أو الماسوكيزم ، فيخلق في النيل صخرة أو صخوراً نائثة ، أو دوامات عميقة ، وقد يرسم زوارق تغالب الانقلاب والغرق ، وقد يزيل عن شاطئيه بعض الأبنية والأشجار، ويرسم بدلاً منها شمساً محتقنة الصفحة مشرفة على الغروب تودع الرسام بالسكابة . كما أن للرسام الخيال والقدرة ، بمقتضى مثاله ، على أن يغرب الشمس من وراء هضبة اصطناعية خيالية على شاطئ النيل ، وعلى الهضبة مشنقة . وله الخيال أيضاً — حسب ميوله الطبيعية وتخيلاته — أن يخلق نيلاً هادئاً بألوانه الزاهية وأشجاره المزهرة ، وعلى صفحاته الصافية الهادئة لذشات كبيرة مزينة تحمل جموعاً من الفتيات والفتيان يعزفون ويرقصون ، بألبستهم الرشيق الصارخة الألوان ، بينما الشمس من أعلى الأفق تشرق عليهم بانتسامة دافئة تشار بهم طربهم وسرورهم .

فالفنان — طبقاً لمثاله الخالق — هو أول من يحاول تجديد الحياة ، وإصلاح المحيط ، وهو الذي يستطيع أن يقودنا إلى عالم أكثر صلاحاً ومناسبة . فالفنانون كالفرقة التي تمهد الطريق ، يفتحون الأبواب ، ويعبدون السبل أمامنا ، كما فتح (جول فيرن) الطريق في الجو وفي أعماق البحار .

إن الشاعر ، حينما يبالغ في تصوير المراتع والأطلال والأنهار ، يكون في الحقيقة جابراً للطبيعة وناقداً لها . وحينما يمدح ملكاً ويخلع عليه صفة الملائكية فإنه ينفقنا بفرائضنا ويجبر شخصيتنا بالصفات الملائكية . وكذلك النحات الذي نحت رمسيس الثاني المشرف على ميدان رمسيس في قلب القاهرة ، فإنه حينما ينظر إلى مثاله وإلى روح ذلك الفرعون الجبار المسارد فإنه ينفق قامته الطبيعية بالنسبة لعظمة روحه القوية ويجبره بهذه الأبعاد المترامية ، كما ينحت الفنان ملكاً جباراً ذا بأس و بطش ، على شكل أسد و بججم كالجلبل — فهو ينفق ويجبر بنيتته الجسمانية الصغيرة بالنظر إلى روحه الكبيرة ، كما ترون ذلك في تمثال أبي الهول .

فالأهرام ، والموميات الفرعونية المحنطة ، ومراكب الشمس ، كلها نقد للحياة الغانية ومحاولة لجبرها بالخلود . فهذا النقد بالفناء ، والجبيرة بالخلود ، فتحا طريق الخلود أمام صلاح الدين الأيوبي ومحمود الغزنوي ، ولكن بطريقة أخرى .

فالمعان المسلم يعلم حق العلم أن الفن ليس تقليداً للطبيعة ، كما زعم ارسطو ، ولا هو تسلية ولهو محض ، كما زعمت طائفة أخرى الكتّاب . بل إن الفن عند المسلم كما كان وقت ميلاده جبيرة للنشاط غير المطلوب في الغريزة الجنسية ، كما أنه لا يزال محافظاً على طبيعته الجبرانية وكابحاً لجوح الغرائز الدنيئة ، ويحوّل قواتها وشلالاتها الدافئة واندفاعاتها الطاغية إلى مسالك الخير ومطالع النور .

فالشاعر الحقيقي الذي هو تلميذ للرحمن ، هو الذي يوجه النشاط القانض عن الغريزة التي تحاول جاهدة أن تشغل منطقة أكثر اتساعاً وأبعد حدوداً من حدودها الطبيعية والمشروعة -- إلى وجهة نقد الطبيعة والحياة ، ويخلق بتخيله وبضوء مشالته أنموذجاً رائعاً جديداً لمحيطننا الطبيعي والاجتماعي يضعه أمام عقلنا وفكرنا . وهذه هي الحقيقة سنة الحياة الراقية الموجهة إلى السكالم والتي لا تقف عند حد .

وأنا لست أنكر الغرائز الموهوبة التي أودعها الله الحكيم في نفوسنا . فالغرائز هي قوتنا وغنيتنا ، وهي التي تحرك العقل الساكن بطبيعته ، وتبعث الفكر الذي يحتاج إلى المحرك . إنها الهبولى الأولى لاملومنا وفنوننا وإحساساتنا العلية ، كالغيرة الدينية والقومية والوطنية ، على شرط أن تسير في طريقها المتسامى المزكي .

كما أنني أنكر الفكرة التي تزعم بأن النفس والغرائز ينبغي أن تقتل وتهجر وتدسى . فقتل الغرائز أو تدسيها هو قتل للنفس الإنسانية وتدسّ للعالم والفن والمواطف السامية وللخلق الإنساني الكريم وخلق للعقد والضلالات . بل إن علينا أن نربي غرائزنا ونسمو

بها ونزكيها بالعلوم والفنون ، كما قال تعالى (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ،
 قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) .

* * *

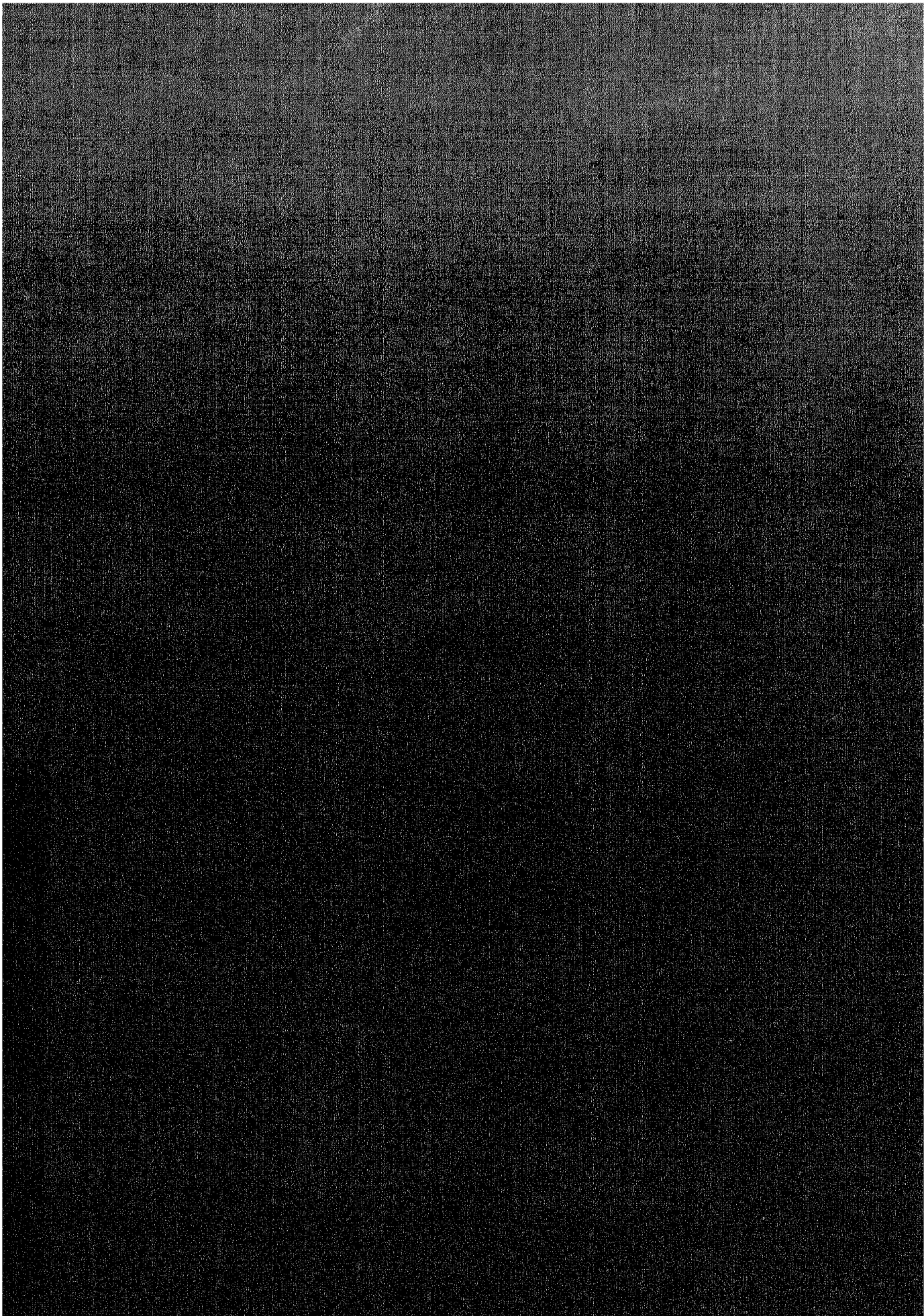
وختاماً ، أخواتي وإخواني ، أشكركم أجزل الشكر ، وأطلب منكم العفو لأنني
 أطلت عليكم ، وأضمت وقتكم ، الثمين وألقيت عليكم قولاً ثقيلاً .

وإنه لواجب على ، في هذه المناسبة الكريمة ، أن أشكر أركان الثورة في مصر
 الشقيقة ، الفتية الناهضة ، إنهم فتية آمنوا بربهم وزادهم هدى في تجديد عهد الأخوة
 الإسلامية ، كما أشكر من صميم قلبي الجهود العظيمة التي يبذلها أخي الكريم الشاعر السيد
 أنور السادات الذي هو في الحقيقة الخيط الذهبي الذي يربط بيننا وبين إخواننا من عرب
 ومن عجم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

ملاحظة : أرجو من السادة المطالعين السكرام أن يتقدوا محتويات هذه المحاضرة لاسمها النقطة التالية :
 « إن الفن ليس تقليداً للطبيعة وليس لهواً وتذلية ، بل هو نقد وجبران للطبيعة والحياة . » وهذا
 هو رأي الحاس الذي انفردت به والملم من مبادئ الدين والخلق .



To: www.al-mostafa.com